تأملات في البناء التركيبي في القرآن الكريم
الحذف في سورة الإسراء أنموذجا

ط.د/ بهلول محمد سيد أحمد
جامعة أحمد بن بلة–1– وهران
الأستاذة المشرفة: د. هني سنية

دراسة البنية التركيبية بحثٌ إجرائي في دلالة الجمل ونظامها البنائي، ويبدو أنّ الهدف من دراسة دلالة التراكيب، هو الوقوف على التحولات الكلامية والأثر الدلالي الناتج من آيات سورة الإسراء. وإننا نسعى من وراء هذا البحث إلى البحث عن المكوّن الدلالي الناتج عن نظم نحوية تركيبية إعتمدت عليها سورة الإسراء أساسا في تأسيس وحدة الفهم والاستيعاب. وهذا ما سنجده في دلالة أهم مكوّنات البنية التركيبية من ذكر وحذف، وتقديم وتأخير، وإضمار وإظهار وغيرها. وسيقتصر البحث على: دلالة الحذف في السياق وتطبيقها على سورة الإسراء.

دلالة الحذف: في اللّغة الإسقاطُ، ومنه حذفتُ من شَعْري أي أخذتُ منه[1]. واصطلاحاً: إسقاط جزء من الكلام أو كلّه لدليل يدل عليه[3].

ويكرر الزركشي، فيوضح أنّ القرآن الكريم يجري على أنواع من الإيجاز منها إيجاز الحذف بالاستغناء عن كلمة أو جملة؛ لأنّ في الكلام المذكور ما يدل على المحذوف لفظا أو سياقا فلا خفاء في معرفة المحذوف، ولا إخلال بالفهم؛ ولهذا اشترطوا أن يكون فيما أبقى دليل على ما ألقى[2].

فهناك إذاً دافع بلاغي يحكم المتحدث ويدفعه إلى حذف بعض من كلامه، ويعطيه سمة التخفيف من كثير من الكلام الذي يُذهب بعضه رونق بعض بسبب تكراره أو ثقله لعدم الحاجة إليه" فمن شرط المحذوف في حكم البلاغة أنّه متى أظهر صار الكلامُ إلى شيء غَثٍّ لا يناسب ما كان عليه أوّلا من الطلاوة والحسن"[4].

والغرض من الحذف" إثارة انتباه المخاطب وإثارة شوقه إلى إدراك المعنى، فَيَعظُمُ في نفسه شأنه حينما يدركه، كما أنّه يشعر بمسرّة حينما يستنبط بنفسه ما حُذفَ من الكلام. هذا إلى ما في الحذف من تحصيل المعنى الكثير باللفظ القليل، مع الوفاء بالمعنى وتشويق المخاطبين"[5].

ومن صور هذه الدلالة في ميدان البحث الإجرائي ودلالاته التركيبية في سورة الإسراء:

1– حذف المبتدأ

لقد حذفت العرب المبتدأ من كلامها كلّما رأت في ذلك مناسبة لخدمة المعنى الذي يريدون، وفق قواعد وأصول بيَّنها النُّحاة واللّغويون فيما بعد، معتمدين في ذلك على القرآن الكريم، فكانت مواضع الحذف الجوازية، ومواضع الحذف الوجوبية، وكانت قواعدهم شاملة لكل ذلك.

فمن مواضع الحذف الجوازية، أن يكون المبتدأ معلوما تدلُّ عليه قرينة حالية تُغني عن ذكره " وذلك أنّك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص، فقلت: عبدُ الله وربّي، كأنّك قلت: ذاك عبد الله، أو هذا عبد الله، أو سمعت صوتا فعرفت

صاحبَ الصوت فصار آية على معرفته، فقلت: زيدٌ وربّي، أو حسَستَ جسداً، أو شممتَ ريحا، فقلت: زيدٌ، أو المِسكُ، أو ذقتَ طعاما، فقلت: العسلُ"[6].

كما يُحذف المبتدأ في القطع، والاستئناف، وإنشاء المدح والذم. وفي سورة الإسراء لم نجد من هذا القبيل سوى موضع واحد في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾[7].

بيَّنَ الله تعالى في هذه الآية سوء عاقبة الزنى بقوله: ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ أي بئس طريقاً طريقه، طريق مؤد إلى شرور ومفاسد كثيرة في الدّنيا[8]. فحذف المبتدأ (المخصوص بالذّم) لمعرفته من السياق، إذ التقدير: وساء سبيلاً هو، أي الزنا.

ومن الأمثلة أيضا على حذف المبتدأ في سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[9]. فالمتأمل في تركيب الآية، يجد أنّه تركيب إسمي، حُذف منه المسند إليه رغم أنّ الفائدة متوقفة على كليهما أي (المسند إليه و المسند)، إلاّ أنّ هناك قرينة لفظية أو حالية تدلّ عليهما، فقد ذكر ابن يعيش (ت 643هـ):" اعلم أنّ المبتدأ والخبر جملة مفيدة تحصل الفائدة بمجموعهما، فالمبتدأ معتمد الفائدة، فلا بدّ منهما، إلاّ أنّه قد توجد قرينة لفظية أو حالية تُغني عن النّطق بأحدهما فيحذف لدلالتها عليه"[10] أي يجوز حذف المبتدأ و الخبر، وإن كانت الفائدة متوقفة عليهما، وكانا عمدة في الكلام إذا فُهم المعنى بدون اللفظ، فيحذف أحدهما، ويبقى إعرابه على اعتبار حكمه الأصلي كما لو كان هذا المحذوف مبتدأ أو خبرا.

والإشارة بـ (أُولَئِكَ):" إلى المعبودين الذين وصفهم" [11] أي" إلى النّبيئين لزيادة تمييزهم" [12]، كعيسى وعزير والملائكة. و"(يَدْعُونَ) ضميره للداعين. وأصله يدعونهم، يبتغون خير أولئك"[13]، و" جملة (يَبْتَغُونَ) حال من ضمير(يَدْعُونَ) أو بيان لجملة (يَدْعُونَ)"[14]. و(أَيُّهُمْ):" اسم موصول مضاف إلى ضمير المبتغين، وهو بدل بعض من كلّ من (الواو) في(يَبْتَغُونَ) "[15] وجاء الموصول مبنيا لأنّه مضاف حُذفَ منه صدر الصلة. و"(أَقْرَبُ) خبر مبتدأ محذوف تقديره هو"[16] و" متعلّقه محذوف دلّ عليه السياق. والتقدير: أيُّهم أقرَبُ إلى ربّهم"[17].

و"الجملة صلة الموصول، ويحتمل أن يكون (أيُّهم) استفهاما مبتدأ، وأقرب خبر، وتقدير الكلام ينظرون أيُّهم أقرب"[18]. قال أبو البقاء (ت 616هـ) في التبيان:" (أَيُّهُمْ) مبتدأ و(أَقْرَبُ) خبره، وهو استفهام والجملة في موضع نصب بـ (يَدْعُونَ) ويجوز أن يكون(أَيُّهُمْ) بمعنى الذي وهو بدل من الضمير في يدعون و التقدير: الذي هو أقربُ"[19].

2. حذف الفعل

من المواطن التي حُذفَ فيها الفعل في سورة الإسراء، قوله تعالى:﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾[20]. فقوله (أنتم) فاعل لفعل محذوف يُفسّره المذكور؛ لأنّ (لو) يمتنع أن يليها الاسم، والأصل: (لو تملكون تملكون) فلمّا حذف الفعل انفصل الضمير، وفائدته الإيجاز، فإنّه بعد قصد التوكيد، ولو قيل: (تملكون تملكون) لكان إطنابا وتكرارا بحسب الظاهر، والمبالغة لتكرير الإسناد، أو لتكرير الشرط فإنّه يقتضي تكرر ترتب الجزاء عليه، والدلالة على الاختصاص، وذلك بناء على أنّ (أنتم) بعينه ضمير (تملكون) المؤخر فهو في المعنى فاعل مقدّم وتقديم الفاعل المعنوي يفيد الاختصاص؛ إذا ناسب المقام فيفيد الكلام حينئذ ترتب الإمساك[21]. فالفائدة إذاً من الحذف الاختصاص، وتقوية الحكم لأنّه لم يرد الفعل بحد ذاته، إنّما أراد المخاطبين.

ومن المواضع أيضا، حذفه في النداء، من ذلك قوله تعالى:﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾[22] وقوله أيضا:﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾[23].

ذكر الصبّان في حاشيته أنّ ناصب المنادى فعل محذوف، فقال:" انتصاب المنادى لفظا أو محلا عند سيبويه على أنّه مفعول به، وناصبه الفعل المقدر، فأصلُ (يا زيدُ) عنده: أدعو زيداً، فحذف الفعل لازما لكثرة الاستعمال ولدلالة حرف النداء عليه..."[24]. فحُذلإ الفعل في الآيتين لأنّ حرف النداء يقوم مقامه، ولكثرة استخدامه، فالحرف أخفُّ في الاستعمال.

ومنه أيضا، أن يُذكرَ المفعول المطلق في غير التوكيد من دون ذكر عامله، فيحذفُ وجوباً إذا وقع المصدر بدلا من فعله، من ذلك قوله تعالى:﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[25] . فقوله: (إحسانًا) مصدر حُذف فعله وجوبًا، و" تقدير نظم الآية هكذا: وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه وبأن تُحسنوا للوالدين إحسانًا. فحذفَ (أن تحسنوا) لوجود ما يدل عليه وهو (إحسانا). وفي تنكيره إفادة للتعظيم، فهو إحسان عظيم في القول والفعل والحال"[26]، و" انتصبَ (إحسانًا) على المفعولية المطلقة مصدر نائبا عن فعله. والتقدير: وأحسنوا إحسانا بالوالدين..."[27].

3. حذف الفاعل

من المتلازمات اللغوية، أنْ لا وجود لفعل دون فاعل، وهو على رأي الزمخشري أصل المرفوعات جميعا، أمّا البقية فهي ملحقة به، غير أنّه يحذفُ وينوب عنه المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله[28]. وقد ذكرت كتب البلاغة لحذف الفاعل أسرارًا، وأغراضاً، ودواعٍ كثيرة منها: الخوف على الفاعل الحقيقي، الخوف منه، تحقيره، الجهل به، ضيق المقام، تكثير الفائدة، أو لأنّه ليس الغرض قصد فاعل معيّن... إلى غير ذلك من الأغراض والأسباب[29]. وهذا مثال لحذف الفاعل أورده ابن باديس في تفسيره، وقد بيّن فيه الغرض الذي من أجله حُذِفَ الفاعل وبُنِيَ فعلُه لما لم يُسَمَّ فاعله، في قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾[30]، قال عند تفسير هذه الآية:" وبُنِيَ الفعل للنائب لأنّ التذكير بالآيات يجب قبوله من أي مُذكِّر كان"[31]. أمّا حذفه في سورة الإسراء، فمواضعه كثيرة نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى:﴿ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾[32] أي: إذا يُتلى القرآن عليهم؛ فحُذفَ الفاعل لكونه معلوما للمخاطب. وللغرض نفسه حُذفَ في قوله تعالى:﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[33] أي: فمَن آتاه الله كتابه بيمينه. وقد يُحذفُ الفاعل لعدم تحقق غرض معين في الكلام بذكر الفاعل، كما في قوله تعالى:﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾[34] فقد بُنِيَ الفعل (قُتِلَ) للمجهول لعدم تحقق الغرض بذكر شخص القاتل؛ لأنّه أراد العموم أي عموم القتلة، ولم يرد قاتلا معيّنًا.

4. حذف المفعول به

جاء في شرح ابن عقيل:" الفضلة، خلاف العمدة، والعمدة ما لا يُستغنَى عنه كالفاعل، والفضلة ما يمكن الاستغناء عنه كالمفعول به، فيجوز حذفُ الفضلة إن لم يضر، كقولك في (ضَربتُ زيدًا): (ضَربتُ) بحذف المفعول به"[35]. كما يمكن حذف هذا الأخير لإثبات معنى الفعل لا غير، ومثال ذلك قولُ الناس: (فلانٌ يحُلُّ ويعقد، ويأمر وينهى، ويضر وينفع)، المعنى في جميع ذلك على إثبات المعنى في نفسه للشيء على الإطلاق وعلى الجملة، من غير أن يتعرَّضَ لحديث المفعول، حتى كأنّك قلتَ:(صار إليه الحلّ والعقد، وصار بحيث يكون منه حل وعقد، وأمر ونهي، وضر ونفع)، وعلى هذا القياس. وعلى ذلك قوله تعالى:﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[36]، المعنى: هل يستوي مَن له علم ومَن لا علم له؟ من غَيرِ أن يَقصدَ النص على

معلوم[37]. أما إفادة العموم من حذف المفعول به، فجاءت في قول الله تعالى:﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[38] وحذف مفعول (ادع) لإفادة العموم إلى هذه السبيل، فقال تعالى:﴿ ادْعُ ﴾[39].

أمّا في سورة الإسراء، فقد ورد حذف المفعول به لدلالة توجيه النفوس لإثبات الفعل للفاعل وعدم الانشغال بالمفعول، في قوله تعالى:﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[40]، فحُذفَ مفعول (يهدي) للدلالة السابقة إذ التقدير: (يهدي الناس). وفي قوله تعالى: :﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا ﴾[41]، حُذفَ مفعول (صرَّفنا) للعلم به من خلال سياق الآية إذ التقدير: (صرَّفنا المواعظ والعِبَرَ). فمفعول صرَّفنا محذوف تقديره المواعظ ونحوها[42]. ومن المواضع أيضا أنّ مفعول المشيئة والإرادة يحذف للبيان بعد الإبهام ولدلالة ما بعده عليه[43] من ذلك قوله تعالى:﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾[44] فمفعول (يَشَأ) محذوف لدلالة ما بعده عليه إذ التقدير: إن يَشَأْ رَحمَتَكُم يَرحَمْكم بالتوفيق والإيمان، وإن يَشَأْ تَعذِيبَكم يُعَذّبكم بالإماتة على الكفر والعصيان.

وفي ختام هذا البحث نخلص إلى:

1. الحذف ظاهرة مشتركة في اللغات الإنسانية، بحيث أنّ المتكلّم يميل إلى حذف العناصر المكررة، أو التي يمكن فهمها من السياق.

2. وروده في القرآن والحديث والتراث العربي، دليل على شيوعه عند العرب.

3. التفات النحاة القدماء إلى ظاهرة الحذف، ووضع القواعد المبنية على الإدراك الصحيح للاستعمال العربي، والبعيد عن كل تقدير متعسّف.

4. اهتمام البلاغيين في البحث عن الأغراض البلاغية، بينما اهتمّ النحويون بالبحث عن تقدير المحذوف وعلّة الحذف.

5. القرآن الكريم استعمل أسلوب الحذف، ولكنّه لم يعبّر عن هذا الأسلوب بلفظ الحذف.

6. شكّل الحذف ظاهرة أسلوبية بارزة، استهدفت القرآن الكريم بغرض الإيجاز، وتنوع هذا الأسلوب فحُذف الاسم والفعل كما حذف الحرف أيضا، ممّا أدى إلى تنوّع الدلالات المنبثقة من هذا الحذف.

الهوامش:

1- إبن منظور، لسان العرب، 40/9.

2- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 111/3.

3- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 102/3.

4- ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الل، المثل السائر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1939م، 81/2.

5- الحوفي، أحمد، مقالة: من إيجاز الحذف في القرآن الكريم، مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة، مطبعة نصر شركة مساهمة مصرية، 1992م، 39/35.

6- سيبويه، الكتاب، 130/2.

7- سورة الإسراء، الآية 32.

8- ينظر: ابن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، أبو عبد الرحمن محمود، دار الرشيد، الجزائر، ط1، 1430هـ/2009م، 245/1.

9- سورة الإسراء، الآية 57.

10- ابن يعيش، شرح المفصل، المطبعة المنيرية، مصر، ط1، د ت، 94/1.

11- مجالس التذكير، 301/1.

12- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 140/15.

13- مجالس التذكير، 301/1.

14- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 140/15.

15- مجالس التذكير، 301/1.

16- نفس المصدر السابق، ص301.

17- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 140/15.

18- مجالس التذكير، ج1، ص301، وينظر أيضا، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج15، ص140.

19- أبو البقاء العكبري، التبيان في إعراب القرآن، تح علي محمد البيجاوي، مطبعة عيسى الباني الحلبي وشركاه، مصر،1396هـ/1976م، د.ط، 825/2.

20- سورة الإسراء، الآية 100.

21- الألوسي، روح المعاني، 180/15.

22- سورة الإسراء، الآية 24.

23- سورة الإسراء، الآية 102.

24- الصبان، محمد بن علي: حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 141/3.

25- سورة الإسراء، الآية 23.

26- ابن باديس، مجالس التذكير، 193/1.

27- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 67/15.

28- ينظر: حامد، أحمد حسن، دراسات في أسرار اللغة،مكتبة النجاح الحديثة، نابلس، ط1، 1984م، ص109.

29- ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، 4/2، وأبو البقاء العكبري، اللباب في علل البناء والإعراب، 157/1.

30- سورة الفرقان، الآية 73.

31- ابن باديس، مجالس التذكير،162/2.

32- سورة الإسراء، الآية 107.

33- سورة الإسراء، الآية 71.

34- سورة الإسراء، الآية 33.

35- ابن عقيل، شرح ابن عقيل، 155/2.

36- سورة الزمر، الآية 9.

37- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، 154/1.

38- سورة النحل، الآية 125.

39- ينظر: ابن باديس، مجالس التذكير، 135/1.

40- سورة الإسراء، الآية 9.

41- سورة الإسراء، الآية 41.

42- ينظر: العكبري، التبيان في إعراب القرآن، 823/2.

43- عباس، فضل، البلاغة فنونها وأفنانها، ص 285.

44- سورة الإسراء، الآية 54.